
إعجاز القرآن
تأليف:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ، (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساء لون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) ، (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما).

أما بعد، فان أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد .

سألني احدهم سؤالا بأنه لو قالوا هم للملحد : لن تستطيع ان تأتي بمثل اية في القران ، ولا بمثل سورة ، ولا بمثله ، فقال الملحد : (ض) يشير الي بداية سورة ص ، وقال : والبطيخ والليمون ، يريد معارضة سورة التين والزيتون .

فأجبت عليه مستعينا بالله بمقدمات .

المقدمة الاولي : ان المثلية لا تعني التطابق من كل الوجوه ، وكذلك لا تعني نفي المخالفة من كل الوجوه ، والدليل علي ذلك اللغة والعرف يؤيد ذلك ايضا ، فان الذين وقع عليهم هذا التحدي هم العرب ، وهم الغاية في الفصاحة التي لا يدانيها احد من اهل القرون التي بعدهم ، فلو كانت المماثلة من كل وجه لكان من حفظ اية من كتاب الله تعالي ، او حفظ كتاب الله تعالي بمثله وكان الشئ مثل ذاته وهذا لا يقوله عاقل ولا جاهل ، اما المكابر والسفسطائي فيمكنه ذلك ، وهو يعلم انه مخطئ وكاذب ، ونحن في جدالنا لأي شخص نكتفي ببيان انه كاذب او مخطئ .

المقدمة الثانية : ان المماثلة لا تعني اقل قدر من المشابهة ولو كان الامر كذلك في لغة العرب لسردوا عند التحدي أي كلام من خطب او شعر وقالوا هذا مثله لكونها تتكون من المبتدأ والخبر والفعل والفاعل ، والحروف الهجائية والمسند والمسند اليه ولا مخرج من هذا ، إلا ان يقولوا ان العرب لم يفهموا معني المماثلة في لغة العرب ، ومن قال ذلك فقد افتري وهو يعلم ذلك والرد عليهم من وجوه :

ما هي حجتك في المماثلة ، ان كانت اللغة فها هي بيننا وقد بينا ذلك ، وان كان الانسان قد يجهل الشي الذي هو فيه طبيعة وسجية فانه ايضا فقد كابر لان اللغة سجية عند العرب مثل النفس والأكل والشرب والنوم فهذه لا يجهلها احد .

المقدمــة الثالثــة : نفي المخالفة لا يعني نفي المشابهة من كل شئ ، فمثلا لو ان احدا قال الماء ليس كالزيت ولا الزيت كالدم ، ولا الزئبق كالعسل فهو لا يعني ان الزيت غير سائل ، وان الماء لا ينتفع به ، وان العسل غير موجود ، ....الخ ، وكل ما ذكرناه هي صفات مشتركة بين هذه السوائل ومع ذلك من نفي المشابهة عنها كان صادقا لغة وعرفا ، وأوضح من ذلك قوله تعالي : (ليس الذكر كالأنثى) ، وقوله قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) مع ان كل البشر يتفقون في البشرية ولكن الاية تنفي المماثلة في الشرع والعقل .

المقدمــة الرابعــة: ان الذين تحداهم الله هم العرب ولن يأتوا بمثله ، ومن اراد المجاراة كان لابد ان يعتمد علي كلام فصحائهم ولا يمكن ان يكون افصح منهم لانه متي ما زاد كلمة او لونا بديعيا او بيانيا او من علم المعاني ، ولم يتكلم العرب بهذا النوع ، لكان كلامه غير فصيح لأنهم هم الغاية ولا يستطيع ان يتعداها ، وكان ذلك طعنا في فصاحتهم لانهم هم معيار الفصاحة اذ منهم تؤخذ لغته لا من غيرهم .

المقدمة الخامسة: الذي يجاري القران لا يخلو من ثلاثة حالات :

الحالة الاولي : ان يكون اعلي من درجتهم في الفصاحة .

الحالة الثانية : ادني من درجتهم في الفصاحة .

الحالة الثالثة : ان يكون مثلهم في الفصاحة .

فالدرجة الاولي مستحيلة لأنه عالة عليهم ، ومتي ما زاد عليهم اسلوبا نزل الي الأدنى ، وقد سبق ذكر ذلك .

الثانية : ان يكون مثلهم وهذه مستبعدة أي ان احتمالها ضعيف جدا وان كانت اقرب الي الاستحالة ايضا لاسباب ليس من الممكن ان يجمع كل اساليبهم حتي يكون له ذلك سجية لانه اصبح بعد جمعه له متكلف لذلك والمتكلف في الشي اقل من الذي فعله سجية مثل الذي يتكلف القيام ، والذي يتكلف المشي ، والذي يتكلف القعود ، وهو بلا شك اقل قوة ونشاطا من الذي يفعله بكل سهولة ولا يتلكأ فيه .

وان كـان مـثلهم سـيعجز كمـا عجـزوا ، وان حـاول فقـد حـاول ان يكـون افضـل وبـذلك يكـون في الدرجـة الاولي ، او في المقدمـة الاولي مـن المقـدمات الـثلاث ، يعـني انهـم عجـزوا ، وكونـه يكـون افضـل مـنهم في اللغـة فهـذه مسـتحيلة ، واذا حـاول ان يـأتي بقـران مـع عجـزهم هـم فقـد حـاول ان يكون افصح منهم ، وبذلك يكون قد حاول المستحيل .

والثالثـة: يكـون اقـل مـنهم لغـة – وهـي الكائنـة قطعـا – فانـه سـيعجز عـن كونـه مـثلهم ، وان كان مثلهم فقد سبق ذكره ، فسيعجز مثلهم .

المقدمـــة السادســة : ان المجـاري في زماننـا هـذا وبعـده وقبلـه الي زمـن العـرب لا يعـدو ان يكـون كاحـد اولئـك العـرب الخلـص في الفصـاحة يعـني لا يكـون افصـح مـن مجمـوعهم ، ولكـن قـد يكـون مثـل احـدهم ، وان كـان مثـل احـدهم ، قلنـا لـه : لقـد حـج مـع النـبي صـلي الله عليـه وسـلم اكثـر مـن عشـرة الـف هـؤلاء امنـوا بكـل مـا نـزل ، ومـن ضـمنه نفـي مماثلـة الاشـياء ، واولئـك عـرب ، وكـل العـرب اقـروا بانـه لا يوجـد كـلام مثلـه ، وكـان العـرب علـي قسـمين : قسـم امـن ، وقسـم كـذب ، امـا المـؤمن بـالقران فلـيس محـل البحـث فقـد امـن بقولـه : (ولـن تفعلـوا) ، وانهـم لـن يسـتطيعوا ان يـأتوا بمثلـه ، وامـا المكـذب فقـد تحـداه الله تعـالي ففـزع الي السـيف والقتـال والهجـاء ، وكـل العـرب مؤمنهم وكافرهم حاكمون علي من ادعي مجاراة القران بالكذب لما اسلفنا .

فصل في كيفية الاعجاز

الوجـه الاول : الاعجـاز امـا ان يكـون الاتيـان بمثلـه ممكـن ولكـن الله مـنعهم ، وهـذا ايضـا اعجـاز ، واما ان يكـون الاتيـان بـه غـير ممكـن مـع كونـه مـن لغـتهم ، وهـم افصـح النـاس فهـذا ايضـا اعجـاز ، فهـو امـا ممكـن او غـير ممكـن ، فايهمـا اختـار فهـو معجـز ، ومـن دلائـل الاعجـاز ايضـا الاولي ، الاخبـار بـالامور المسـتقبلة ، مثـل قولـه تعـالي : (سـيهزم الجمـع ويولـون الـدبر) وقـد كـان ، وقوله : (لتدخلن المسجد الحرام ..) وقد كان ، وقوله : (ولن يتكونه ابدا لما قدمت ايديهم ..) .

الوجـه الثـاني : اعجـاز التحـدي ، قـال تعـالي : (قـل ان كنـتم في ريـب ممـا نزلنـا علـي عبـدنا ...) ففي هذه الاية وجهان من الاعجاز : الاخبار بما سيكون ، والتحدي ان يأتوا بمثله .

المستقبلية ، قال : (ولن تفعلوا) ، والثانية التحدي ، قال : (فأتوا بسورة من مثله) .

الوجـه الثالـث : وهـو الاخبـار بالماضـي وقصـص الاولـين مـع ان النـبي صـلي الله عليـه وسـلم امي .

فصل في النظم والتأليف

القران ليس شعرا ولا نثرا ، ولا كلام مسجوع مقفي ، والكلام عندهم اما شعر او نثر ، فان قيل هذا شعر ، عورض بأن من العرب من ادعي انه قول كاهن ، وقول الكاهن هو السجع ، ، ومنهم من قال انه سحر ، وكلهم قد صرح بتكذيب الاخر ، أي المؤمنين صرحوا بتكذيب الكافرين ، والكافرين انقسموا علي ثلاثة اقسام :

فمن قال شعر ، كذب من قال قول ساحر ، لان الساحر ليس بشاعر .

ومن قال سحر فقد كذب من قال شاعر .

ومن قال انه قول كاهن فقد كذبهم جميعا وكذبوه جميعا .

فالكل قطع بتكذيب الاخر ، ونحن نقول لكم : انتم صادقون في تكذيبكم لبعضكم البعض ، كاذبين في دعواكم الاخري لان القسمة لا يشترط ان تكون ثنائية فيمكن ان تكون ثلاثية اعني قران ، وشعر ، ونثر ، وكل من امن من الفصحاء يسميه قرانا .

اما كونه ليس شعر فان البيت الواحد بمفرده لا يكون شعرا الا ان تكون متوالية ، وان اختلف الروي كذلك لا يكون شعرا فهذه ابيات مما حكاه الباقلاني في اعجاز القران من صفحة ، يشير رحمه الله الي ايات وقعت في القران وهي بيت موزون ، كقوله (وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) قالوا هذه الاية من الوافر ، وقوله : (وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) قالوا : هذا من الرمل ، وكقوله : (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) قالوا : هذا من الرجز ، واستدل علي انه لو كان شعرا لما خفي علي شعراء قريش وفصحائهم ، ثم استطرد قائلا ص٧١ ما مضمونه مستدلا علي ذلك ان هذا ربما يتعرض له كلام كل شخص ، وان كان لا يقصده ، ولو ذلك لكان كل الناس شعراء ، قال : وان القائل قد يقول لاصحابه اكرموا من لقيتم من تميم ، وهذا مضمون كلام الباقلاني عليه رحمة الله .

اقول : حتي في العامية قد يكون الكلام في جملة شطرة من بيت ولكن صاحبه لايسمي شاعر ، ولا ينتبه الناس الي ذلك ، كقولنا : (كيف الحال يا اصلي) فهذه موزونة ، ولكن من قالها ، او سأل هذا السؤال لا يسمي شاعر .

اما كون القران نثر ، فقد اسلفنا القول فيه ، فان قالوا في القران سجع ، كقوله : (وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ، قلنا :مثل هذا ايضا موجود في الشعر بمثل قول كعب بن زهير :

شَـدِيدُ الشَّـظَى عَبْـلُ الشَّـوَى شَـنِجُ النَّسَـا   كـأنّ مكـانَ الـرِّدْفِ مـن ظهـرِهِ وَعَـى

وقول الخنساء :

طويـــــل النجـــــاد رفيـــــع العمـــــاد   كثـــــير الرمـــــاد إذا مـــــا شـــــتا

ومـن وجـد في الشـعر سـجعا لا يجـوز ان يقـول هـذا سـجع ، ومـن وجـد في النثـر بيتـا فـلا يجـوز ان يقـول هـذا شـعر ، ومـن وجـد في القـران قرانـا يوافـق بحـرا مـن البحـور او موضـعا يتـألف بحـروف متماثلـة في اخـر الكـلام في القـران فـلا يكـون بـذلك سـجع ، وهـذا وحـده اعجـاز لان العقـول حـارت في هـذا الكـلام العجيـب اهـو نثـر ام شـعر ام سـجع فـان اقواهـا مـن قـال هـو قـران لمـا اسـلفنا مـن حجـج اوردوهـا مـا كـان بخـلاف ذلـك حـتي الشـيعة الـروافض – وهـم اضـعف البشـر عقـولا – الـذين قـالوا ان القـران محـرف فيـه لم يخرجـوا لنـا قـرانهم الصـحيح لانهـم يعلمـون انهـم كـاذبون ولا يسـتطيعون الاتيـان بمثلـه ، ان الـذي يعـارض القـران في زماننـا هـذا يسـتقل جهـل النـاس لـذلك لم يبـادر العـرب قـديما للمعارضـة مـع ان الفـترة كافيـة والحاجـة ماسـة لانهـم كـانوا علـي درجـة واحـدة في معرفـة الصـحيح والسـقيم مـن الكـلام الظـاهر امـا الغـامض في ترتيبـه فهـذا لـه اهلـه واصـحابه لـذلك كـانوا في عكـاز يحكمـون علمـاء البيـان والنظـام كالنابغـة ولـو ان احـدهم قلنـا لـه هـل تسـتطيع ان تفاضـل بـين امـرئ القـيس وعلقمـة الفحـل في وصـف الفـرس لمـا اسـتطاع وكـذلك لا يسـتطيع الموازنـة بـين المتنـبي وبشـر بـن عوانـة والبحـتري في وصـف معركـة الاسـد ، الا تـري ان هـذه القصـائد لـو قـرأت علـي الاعـاجم مـن النـبط والبربـر والفـرنج مـا اسـتطاعوا التمييـز فـذلك القـول فـيمن قـال مجاريـا (والظهـر ان الانسـان لفـي كفر) يجاري سورة العصر ، هذا في الكلام وسياقه ، ولم ندخل في فصاحة تركيب الحروف .

اختـم قـولي في مكتـوبي هـذا ان هنالـك شـئ واضـح في القـران انـه اذا قـرئ او سمـع فانـه لـه تـأثيرا في النفـوس وترقيـق للقلـوب وتعلـق بالاسمـاع بمـا لا يـدع مجـالا للموازنـة ، ثم اقـول : لـو ان هنالـك موزانـة اجريـت فلابـد مـن وحـدة الموضـوع وان يكـون الموضـوع مفهومـا لان الحكـم علـي الشـئ فـرع عـن تصـوره ، ووجـود الحكـم المميـز ، أي المؤهـل للحكـم ولـزوم الانصـاف وتـرك الاعتسـاف ، فلـو ان معانـدا جـاء بتفاحـة وحنظلـة واكـل مـن كليهمـا ، وقـال الحنظلـة هـذه مثـل التفـاح او احلـي منـه ، وأتي اليـه بـدر وبعـر فقـال : مـا اجمـل البعـر ، ومـا اقبـح الـدر ، فـان الحنظـل والتفـاح سـواء عنـد مـن تعطلـت حواسه ، او ظهر عناده ، كذلك البعر والدر ، وكذلك القران والشعر والنثر .

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه بطريق التحدي بين عطبرة والخرطوم

ظهر السبت الموافق ٢٠/٤/٢٠١٣م.